كتابات لاتعرفينها

(نصوص)

خالد سعيد الداموك

كتابات لا تعرفينها

(نصوص)

خالد سعيد الداموك

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء:

إلى زوجتي الحبيبة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدد

مدد.. مدد

كي أرسم خطاً للأفق

مدد.. مدد

كي ألثم ثغراً في الغسق

مدد.. مدد

كي أنجو من بحر الغرق

مدد.. مدد

كي لا أندم

كي لا أسأم

كي أحيا بين ذراعيكِ

كي أقطف ورد خديكِ

كي تعلم كل الدنيا بلا استثناء

أن فؤادي ذاب بين يديكِ

ذاكرة لاإرادية (١)

صالة المغادرة

السوادُ الأعظم يطالعُ الانتظار

المنطقة نائمة ساعات الفجر

رأس يذوب بين الرؤوس المغلّفة بالسفر

عين تستدرك بناتها خلف الغطاء الأسود

حطام رجل يوّدع على مسرح المغادرة

هناك من يبحث عن مخبأ لقلبه

الحب أجمل طريقة للموت

الجوّ مُترهل بالصمت في هذا التشرين البارد، والديك يصيح للملائكة مع الخيطِ الأخير من الليل، وعلى الطاولة:

ست سجائر، عود كبريت واحد، قهوة سوداء لليلة سوداء، ونص طويل كشعرك، أكتبه لي وللأدراج المتخنة بأشباهي المتراكمة والمنسية. فكيف أعبرُ بي إليك؟

خنتُ نفسي البارحة عندما لم أعشقكِ بكل ما لا أملك، ولأني لا أعتقد أني أملك ما لا أملك، فقد جئتُ إليكِ اليوم معتذراً بما أملك، فهل ستسامحينني؟

محاولتي معكِ كالغيمة التي تسافرينَ على متنها في جوف خيالاتي؛ بيضاء في رَحِم بيضاء، تلعبينَ بكثبانِ ضبابها، تبنينَ قلاعها وتركلينَ سحابها. وإذا ما اشتقتِ إليّ، تمُدينَ يديك لتزيحي عن وجهكِ المنسي أكوام البياض. تُطلينَ من داخلها عليّ بطريقةِ الابتسامةِ الأخيرة. تُبعثرينَ أكوامَ الغيمة وتتوقفينَ بها على البحرِ الأكبر. تنثنين بعودكِ الطيّب وتمشطينَ شعركِ الأسمر. تَصُبينَ شلالاتَ خصلاتكِ من فوقِ غيبيات السماوات حتى قيعان المحيطات.

أنتِ لا تعلمينَ أنكِ تتركين في الأعماق لؤلؤة كبيرة كخدك، وكنز مدفون، وصَدف يجدهُ الصياد في الصُدف، وحياة غريبة بلا أوكسجين.

تقبلتُ عزائي فيك وتناولتُ ساعدي وقبلّتُه. ارتميتُ هناك ووجدتُني هنا. حدثتُ نفسكِ عنكِ وعن الصورةِ التي وقفتِ خلفها وطلائعُ الليل تنهال على سديمِ وجهكِ المُنهَك، تُكورينَ بين يديكِ منديلاً بمئاتِ الطيّات وأربع دمعات سكبتها أنا. ولأني أحبُ خساراتي وأبحثُ عنها، تماديتُ فيكِ بغرائزي عندما جاءَ من أقصى الخيانة رجلٌ يسعى، فاستكثرتُ من الخير وتوكلتُ على اللهِ واخترتُ أن يحرمني منكِ ليعوضني الجنة.

هل سيُرضيكِ أن أقايضكِ بالجنة؟

الطريقةُ التي تتبعتُ بها أحاديثنا كانتْ مخزية، وربما أكونُ الرجل الوحيد الذي لا يُحِبكِ بالطريقةِ التي تريدينها. أو ربما أكونُ رجلاً مختلفاً بتفاهةٍ كبيرة تدعوني إلى القرفِ والقيء في أغلب الأحيان. فطبيعتي التي لا أعرفُ لها قراراً تؤكدُ لي أني كنتُ رجلاً عادياً جداً وليس هناك الكثير المختلف في حياته. رجل يُحملِقُ في وجهه عند كل مرآة وهو يرمي أطراف عمامته خلفه بعدَ أن يعقلها ويتوكل. لا يؤمن بالوقار ويُلطخُ شعرهُ بالسواد خوفاً من أن يُعيّرَ ببياضه. لا يُشجع إلا فريق الشباب كي يجد مدرجات الملعب خالية عندما يذهب إليه. يتواكل ويتخاذل

كثيراً وإذا ما نجح قال هذا مني وإذا ما فشل ملأ الدنيا عويلاً واتهم كل من حوله بالتآمر عليه. لا يشاهد إلا أفلام "أيدي ميرفي" ويكره قراءة الروايات لأنها شأن أنثوي كما يعتقد. يحب الجلوس مساءاً في مجالس الكذب الأخيرة حتى يتطرق لنفسه وينفخها بالخواء والهواء بين الأصدقاء. يُتابعُ المسلسلات التركية لأن "لميس" فيها. يتربع عند التاسعة مساءاً منتظراً أخبار الشأن العربي المكلوم وهو لا يُهمهُ من أنباء العرب سوى أن يسمعها بعينيّه الجاحظتين من شفتيّ "عُلا فارس". رجل من الواجب عليه في أغربِ حالاته أن يكونَ رجلاً روتينياً بليداً للأبد.

أتعلمين أن الحياة صعبة معكِ، وكلما حاولتُ البحث عن وجوهٍ أُخرى لعلاقتنا تذكرتُ "الملكة العذراء" عندما قتلت "ماري ستيوارت" كي تختلي بالعرش. حتى أني بدأتُ أشكُ كثيراً بعقليتي المتفانية وهي تقدمُ كل أوراقي في المرافعة الأولى رغم أنها لن تُسمن ولن تُغني من جوع. ولكن جُلّ ما يشغلني بِبله، وكل ما أهتم فيك له؛ هو أني أُحبكِ بطريقة لا يمكن التوبةُ عنها، وأني أدعو الله في صلواتي أن يزيدني حباً بكِ وألا يصرفني أبداً عنكِ. لم أُفكر يوماً أن أدعو الله أن تحبيني كثيراً كما أحبكِ كثيراً، بل ربما كنتُ أتمنى نجاةً سريعةً لقلبكِ مني كي لا أتركَ فيهِ عاراً أحمر تُخبئينه عن الناس. عاراً لا يجعلك تقولي لهم: هذا الرجل الأعوج حبيبي.

منذ البداية والتغيرات معكِ كانتْ كبيرة جداً، والحياة التي كنتُ أمارسها غريبة عليّ جداً، وبين جداً وجداً كنتُ معكِ مخطوفاً من نفسي جداً جداً. وما بين طرفةِ عينٍ وانتباهها غير الله من حالٍ إلى حال، فأمسيتُ كل ليلة وقبل النوم تحديداً، ألعب لعبة البحث عن الفوارق الألف بين صورتيّ المتباينتين قبلَ حُبكِ وبعدَ قُربكِ. معكِ القلب انحرف عن الصدر يميناً لأنك تقعين في شرق الخارطة. النبض أصبح مسموعاً للإنس والجن والمجرات البعيدة ومن على الشهب الساقطة. اسمك معقوف على شفتيّ كالصلبان النازية أردده بلا تعب بين الأحلام النائمة والأحلام المتيقظة. أربتُ على صدري مرتين كلما تذكرتكِ وكأنما أُهدهدُ عليكِ. أُنظمُ حياتي معكِ كي لا تسبقني جريرتي في الحب عندما أُقبلُ عينيّكِ. أتحدث عنكِ معي طويلاً مطولاً وأتشاجر معك قليلاً مُقللاً وأُشعِلُ لك رأسي شيباً وأتمناه كثيراً أكثر لأنك تحبينه بهذا المظهر. أشتاقك، أحبك، أعشقك، وأتمنى أن أموت كهلاً بين يديك لأني أؤمن بكل دياناتي أني ما دمتُ ميتاً بكل الأحوال، فالحب أجمل طريقة للموت.

أنتِ سقف كفاية يخصني ويغطيني ولا يجعلني أنظر إلى أحدٍ بعدكِ. الطاقات التي اختزلتها قبلكِ استنفذتها معكِ، رضاي وغايتي وسعادتي أن لا تبتعدي عني أو تُفكري بغيري. تُغيرُ جحافلُ

صورتك بذاكرتي على فلول المساكين من مسائي فأضحك لدكتاتوريتكِ واستبدادكِ. أراكِ أمامي وخلفي ومن فوقي ومن حولي فأُقبلُ لك الهواء من كل جانب وأنتِ مزهوة بنفسكِ ترتبينَ شفتيكِ على رفوف الفراغ. تغيّرتُ عنيّ حتى بانتماءاتي ورغباتي، تَغيّر كثيراً صدري وتَغيّر كثيراً شكلي، وآمنت أني عندما وجدتك وجدتُ حباً حقيقياً يجعلني لا أهتم منذ اليوم لنعومة "لميس" لأنك أنعم، ولا أنتظرُ نشرة "علا فارس" لأنك أجمل، وأبكي كثيراً كالنساء عند فراق حبيبين في فلم رومنسي. وأقرأ الروايات بشغف، وأشجع الجزائر بكل حماسة لأنك تحبين "أحلام مستغانمي". بل أحسستُ بأن تسليمي لك خيراً أرادهُ الله لي دون أن أهتم لقتلكِ إياي كما فعلتْ الملكة العذراء يا عذراء صدري.

تعبت، ولكني أريد القول من كل هذا:

من منا يُريد أن يجد نفسه بين صفعات تشرين الباردة ويحب أكثر رغم كل الغباوات التي يختفي خلفها؟

من منا الآن يملأ أدراجهُ بالحكايات القديمة والروايات الحميمة لأنه يدركُ أنكِ فتاة أكبر من أن يُكتب لها أو يكتب عنها؟

من منا يلعب قبل نومه لعبة الفوارق الألف كي يتأكد أنك لستِ فتاة عادية؟

بل من منا في هذا الليل يملكُ حباً كبيراً وشوقاً غزيراً وست سجائر وعود كبريت واحد؟

تشرين الثاني ٢٠٠٩

أوضاع متقلبة

"أصبح الوضع سيئاً كما أعتقد"

تقولينها لنفسك وتتألمين. تصوبين نظرك إلى السماء والأرض تمر حولك بأحزانٍ نزقة. تبزغ رؤوس الأشياء المدببة بالحيرة. تذرعين فضاء الحجرة بلا أفق. تتكئين على المرايا فتطل من الأدراج. يحاور جسدك السرير ولا ينجب فكرة. تُقدرين أن الوقت يتحرك والأيام عادت مضطربة، وأن هذه الرؤوس مؤلمة لأنها مدببة.

تفكرين أن ما يحدث حدث منذ أسابيع فقط، أسابيع قليلة لم تكوني قبلها سوى صديقةً وفيةً للضحك والنزهات وحرية المدينة ما دامت الإجازة مُطمئنة. زُرتِ الكثير ونسيتِ الكثير وكنتِ مندمجة مع كل القضايا الغير مُهمة.

ثلاثة أسابيع ربما، ثلاثة كما أعتقد، ثم عاد الوضع سيئاً من جديد. تغيّرَ كما تغيّرَ أول مرة وأهداك سعادةً مؤقتة. سعادة مُعلبة يمكن ركنها على الرفوف أو وضعها في البراد ولكنها بدون مواد حافظة، سعادة مؤقتة إن جاز التعبير، سعادة تكمن خطورتها في أنها ميتة لا محالة وقريباً جداً سيحدث ذلك ولكنك لا تعرفين متى تحديداً.

كنتُ أتخيل وجهك وهو يلتقي وجوههم أول مرة، أصوّر في مخيلتي قسماته المُتقدة كروما يحرقها نيرون المجنون ويركض في شوارعها ويضحك. تجلسين على مقعد يحصرك داخل مضيق فكرتهم الملعونة، تمخرين عباب عقولهم لتمري بسلام ولكنك تتذكرين كلما مرَّ الوقت أنك لا تعرفين السباحة فترتبكين. أفواههم لا تتوقف عن ترديد الحكم التي قيلت منذ ألف عام، أوداجهم غاضبة ولونها أحمر، تركيزهم مُبعثر، وليس له حل سوى أن تتقبليهم كما هم. حتى أني تخيلتك تقسمين بسريرتك أنك تعرفين ما يريدونه. هناك ما يظهر ويعود فيختبئ ويهمهمون به من ورائك ويتحرون الوقت المناسب لدخوله، كان وقتاً مُباركاً في نظرهم. أما أنتِ، فكما أنتِ، ساذجة وتعتقدين أن الحياة حُبلى بالمفاجآت الطيبة.

ثلاثة أسابيع تقريباً، ثلاثة أسابيع فقط. هناك ما لا تريدينه ولكنه يحاول الحدوث معك. تتألمين كثيراً لأن الدنيا ترفض أن تسمعك ولا تريد أن تفهمك. تدورين بجسدك قبل أن تُلقي رأسك بين يديك لتخططي فضاء الدنيا بشعرك وتفكرين في رجل لا أريد معرفة اسمه. تغيبين في حجرتك المظلمة كثيراً ولا تترددين في دخول أجواء الغيبة المتردية في مركز التنهدات. تُفكرين ولا تقررين لأنك تعلمين أن القرارات مهما اتخذناها فهي لا تحدث في مجتمعاتنا، لا تتعدى أن تكون آراء ولنا أن نحلم

بها دون أن ندور حول حمى وقوعها. تتنهدين وتُخبئين رؤوس الأشياء المدببة وتقولين لنفسك: "فعلاً، أصبح الوضع سيئاً"

أيلول ٢٠١٤

دردشات

حواران مختلفان لشخصيات مختلفة بعنوانٍ واحد.

_ : هو

= : هي

(الحوار الأول)

_ .....

= .....

_ لماذا صامتة؟

= .....

_ تبكين؟

= ولم لا أبكي، كنتَ تعشقني كامرأة وها أنت تتركني كرجل

_ كنتِ صاحبة أول الحب

= الحب يعلمك أشياء كثيرة ويريك أشياء أكثر مختلفة تماماً عما كنتَ تعتقده

صمتت قليلاً قبل أن تضحك بسخرية حاسرة:

= كنتُ أعلم أن الحب متاهة أفعوانية تجوب بك الأفق، لقد رأيتُ ذلك، ولكن ما لم أكن أعلم عنه هو "النكهة"

_ النكهة؟

= النكهة التي تعلق فيك كما يحدث مع نكهات الطعام التي تعلق بفمك، لقد أصبحتْ كل التنهدات تأتي بطعمك في صدري

_ مُستسلمة؟

= وبجرأة، لأنك الوحيد الذي حرك شيئاً في صدري فأوقد النجمات وأنبت آب وحط بالضباب من على القمم

تصمت قليلاً قبل أن تشق عصا الطاعة التي تدعيها وتسترسل:

= يوماً ستُدرك ما أعنيه

_ لم أكن أتوقع أن تكوني هكذا

= أنا مؤمنة ولستُ مثلك، أنت تحدق بالأشياء وتزم شفتيك قبل أن تختارها وتتملكها

_ لستُ هكذا

= بل أكثر

دار بينهما الصمت لبرهة حتى أكملت:

= كيف حال وسادتك؟

_ ما زالت منقبضة

= ألا تحبها؟

_ لا أحس بالكثير تجاهها، وفي أحيان كثيرة أتمنى أن أملك الشجاعة على تغييرها، لقد أصبحت تؤلمني

= لا تفعل

_ لماذا؟

= إن كنتَ لا تريدها فقدمها لي هدية

_ لن أفعل

= إذاً لا تغيرها

يصمتان مرةً أخرى قبل أن تضحك.

_ لماذا تضحكين؟

= تذكرت شيئاً

_ ما هو؟

= أتذكر هديتك التي وضعتها على وسادتي لأجدها عندما أستيقظ؟

_ أي هدية؟

تضحك وتتعثر أنفاسها بالكلمات قبل أن تلفظها:

= الساعة التي أردتَ أن تذكرني بأهمية الوقت

_ آه، نعم، ما بها؟

= من المؤسف أنني عندما استيقظت صباح اليوم التالي دفعتها من على وسادتي فسقطت عن السرير وتحولت إلى قِطع

تواصل الضحك مرة أخرى.

_ ماذا ؟!

لبثا عشر ثوانٍ يضحكان.

_ لماذا لم تخبريني ؟

= لم أجرؤ

أخذت تسترد صوتها من حنجرتها اللاهثة حتى هدأت أنفاسها وعادت لصوتها الأسيف:

= لقد حللت الموقف كثيراً

_ أي موقف؟

= موقف الساعة المكسورة، رأيتُ أن ما حدث يرضي كل الأطراف، يرضي طبيعتي أن أظل فتاة لا تهتم بالوقت، ويرضي الحب وكأنما يقول للزمن توقف ❖

ثم تكمل بهمس: ها هو الآن توقف

_ لا تكوني سوداوية، الحياة تنتظرك

= ليس هناك ما ينتظر المرأة، المرأة هي من تنتظر دائماً لأنها مصابة بلعنة الأحلام

_ كلنا نحلم

❖ في إحدى صرخات "غوته" على لسان "فاوست": (قف أيها الزمن.. ما أجملك!) عن "أحلام مستغانمي في رواية" ذاكرة الجسد".

= الأحلام السيئة أقصد. كما أن الرجل ليس كالمرأة؛ الرجل يحب الجمود؛ يحب أن تبقى الحياة كما هي ولا يريد لها أن تتغير. المرأة مختلفة؛ فهي تؤمن بأي نظرية تتعصب للتطور وتحولها إلى معادلة تحتاج فقط إلى عنصرين مختلفين يُمزجان بذرة حب فترحل بهن نحو أحلام كبيرة وأطفال يشبهونها ويشبهونه ولا يختلفون إلا على تسميتهم

_ نعم لقد سمعتُ هذا

= ماذا سمعت؟

_ المرأة لا تحب إلا من يتزوجها

= بل تحلم بأن يتزوجها من تحب يا غبي

_ أذكر أيضاً أن أحدهم أخبرني عن قصة ناظم الغزالي والمحبس

= وما هي قصة ناظم والمحبس؟

_ قيل لي، ولستُ أعلم ممن، أن ناظم عندما كان يبدأ مشواره الفني تعرف على مطربة شهيرة في ذلك العصر وأحبها، بطبيعة الحال لم يكن هناك توافق بينهما فهي كانت تسجل مجدها وهو ما زال يحاول أن يحقق نجاحاً، علاوةً على ذلك كانت هناك مشكلة أخرى

= ما هي؟

_ المطربة الشهيرة كانت تحب رجلاً من أبناء الذوات وقد أغدق عليها بالكثير

= فأجمع الحب حباً كله تبل ❖

_ كانت تهيم بعشيقها الذي وفر لها الكثير من سبل النجاح وأعانها بمنصبه وماله، هي أيضاً تنازلت من أجل حبها عن الكثير من متطلباتها كامرأة وارتضت لنفسها أن تكون عشيقةً سرية

= حب امرأة

_ نعم حب امرأة، وعشيقها كان يمثل بحق حب الرجل الحقيقي؛ فالرجل متزوج ولديه أسرة يسكن إليها ولكنه أحب المطربة إثر لقاء في إحدى سهراته الحمراء

= .....

_ ناظم كان قريباً من كل هذه الأحداث وذكياً وجريئاً عندما تقدم لخطبة المطربة مباشرةً دون النظر إلى العشيق المرموق أو أي ظروف أخرى تحيط بالموضوع

= وبماذا أجابت؟

_ ماذا تتوقعين؟

= رفضت بالتأكيد؟

❖ عجز بيت من معلقة الأعشى:

"وعلقتني فتاةٌ ما تُلائمني   فأجمع الحب حباً كله تبل"

_ بل وافقت مباشرةً عندما تقدم لها وفي يده "محبس"

= !!!!!!!

_ ماذا بك؟

= وعشيقها، ماذا فعل؟

_ ليس الكثير، عندما شاع أمر الخطبة ووصل الخبر ابن الذوات لم يستطع لقاءها وحاول نسيان الموضوع ليُقنع نفسه أنها نهاية حبٍ لا يملك مستقبلاً، كما أنه كان حريصاً على وضعه الاجتماعي

_ وانتهت القصة؟

= لا

_ ماذا حدث إذاً؟

= لقيها ذات ليلة مصادفة في حفلة أخرى

= وماذا فعل؟

_ كان هادئاً في البداية حتى التقت أعينهما فلم يطق بعد ذلك صبراً، فقد أعصابه وأصابه الهياج وقام بضربها أمام الناس دون أن يتدخل أحد

= يا جبروتكم أيها الرجال!

_ أتعلمين ماذا كانت تقول؟

= ماذا؟

_ كانت تصرخ: "لستُ السبب، ناظم هو من وضع المحبس في إصبعي"

ضحكتْ قليلاً ثم حددتْ وجهة حديثها من جديد:

= ولكنك لا تعرف ما الذي يحدث بها إذا لم يتزوجها

_ بالنسبة لنظرة الرجال ستكون عاشقة متفانية، وبالنسبة لنظرة النساء ستكون حمقاء أخرى

سكت الطرفان بعد هذا الحديث الطويل وكأنما يودعان حبهما، يعلمان تماماً أن هذا الحديث لن يتكرر مرةً أخرى.

= قبل أن ننتهي، أريد أن أطلب منك شيئاً أخيراً

_ بكل سرور

= لا تُغير وسادتك، أشعر أنها ستتذكرني بعد أن تكون قد نسيتني

= ......

_ ......

(الحوار الثاني)

لم تعد الأشياء مهمة في الآونة الأخيرة، وكل ما تعلمته من أقداري الماضية أصبحت عبارات عابرة كالعلاقات العابرة التي نمارسها نحو الضفة الأخرى من الأماكن.

_ .....

= .....

_ حلمتُ بكِ

= هنيئاً لك

_ لم تعد تهمك الأحلام؟

= أصبحتْ كالعبارات العابرة يا سيدي

_ لم أهنئك عندما حلمتِ بي

= كنتَ أحمقاً كما أنتَ الآن

_ ولكنها رؤيا أكثر من أن تكون حلماً

= إذاً هنيئاً لك بأكبر تهنئة ممكنة

_ صدقيني رؤيا. (بخذلان)

= ألم أقل لكَ أن الأشياء لم تعد مهمة في الآونة الأخيرة؟

_ لكنها ليست أشياء

= بل أشياء، دعنا من أحلامك، أخبرني عن أمك

_ ماذا ؟

= أمك

_ ما بها ؟

= لم تعد تحبك؟

_ .....

= لماذا السكوت؟

_ أصبحتُ أخافك

= لماذا ؟

_ تعرفين عني أكثر مما يجب

(ضحكة شيطانية لا تلبث أن تغوص في تنهيدة بليدة)

= هي تريد لك أن تنتهي وأنت تريد أن تبدأ ؟

_ وأشياء أخرى

= مثل ماذا ؟

_ أشياء تتركني كهلاً يتركك، أنا لا أريدُ أن أتركك

= تركلني ؟

_ أتركك، سمعك أصبح ثقيلاً. (بضحكة)

= آها، تتركني

_ .....

= حقاً، ولكن دعنا في أمك

_ بل دعينا من أمي

= هل أصبحت تتنكر لوالديك؟

_ والديّ قدري الذي لم أختره، أنتِ قدري الذي اخترته

= وماذا يعني هذا؟

_ الإنسان يتمسك دائماً باختياراته ويعتنقها اعتقاداً ويجبر نفسه على حبها كي لا يتوب عنها فيكتشف أخطاءه

= ربما، ولكن قطعاً أنه ليس إجمالاً

_ أبو جهل عندما سُئل عن النبي صلوات الله وسلامه عليه إذا ما كان يكذب قال: (ما كذب قط، وكنا نسميه الأمين، ولكنا تسابقنا نحن وبني هاشم في السقاية فسبقونا وفي السدانة فسبقناهم، فأن يأتي منهم في آخر الزمان نبي، فهذا ما لن يطيق بني مخزوم الإتيان به أبداً)

= أغبياء أنتم أيها الرجال، تكفرون بالله من أجل انتماءات عنصرية

_ أتعتقدين أن أم جميل أذكى من أبي جهل؟ ❖

= وهل تعتقد أنك أذكى مني؟

❖ أم جميل: زوجة أبو لهب وفيها نزلة الآية (حمالة الحطب، في جيدها حبلٌ من مسد).

_ ليس هناك وجه مقارنة بيننا، سأُخضِعُ لكِ نفسي دون أي رغبة في المنافسة، وربما سأنفي عن نفسي أهلية المقارنة بك

= ما زلتَ رجلاً فمن الصعب تغييرك

_ تريدين تغيري؟

= لا، فإن غيرتك لن تكون أحمقاً كما أحبك

_ هل يعجبك أني أحمق؟، لا، لحظة، سؤال اعتراضي، "هل تحبينني؟"

= ماذا؟

_ قلتِ قبل قليل أني إن تغيرت فلن أكون أحمقاً كما تحبيني

= نعم، صحيح

_ هل تحبيني؟

= نعم، أقصد أني قلتها، أي أني، لم أكن أعني ما تعنيه أنت، كنت أقصد..

_ ماذا تقصدين؟

= ليس الحب بالطريقة التي تعنيها أنت، المهم، كنتَ تسألني إذا ما كنتَ أحمقاً، صحيح؟

_ ماذا؟

= بالنسبة لسؤالك عن حماقتك، وليس عن شيء آخر فأنا أعتقد أنك تعجبني كثيراً، وليس دائماً، وأكثر ما يعجبني أنك رجل

_ الرجال أغبياء إذاً

= بالتأكيد، تمارسون ذات الطقوس منذ أن ألقى قابيل على رأس هابيل الصخرة، تعتقدون أنكم تفهمون كل شيء وأنتم لا تفهمون شيئاً

_ وهل هذا يعني أن النساء يفهمن كل شيء؟

= لا، ولكنه يعني أن النساء لسن غبيات

_ أخبريني إذاً، لماذا أصبحتِ فتاة يائسة؟

= لم أصبح كذلك حتى عرفتك

_ أنتِ لم تعرفيني حتى الآن

= لقد عرفتك منذ أن رأيتك تتكاثر في أحلامي بالأصوات

_ ولماذا لم أعرفك أنا في أحلامي؟

= أحلامك رؤى، وأحلامي أضغاث، نحن لا نجتمع أبداً في نفس الأشياء المهمة أو المهملة

_ لماذا تصرين على جعلي من الأشياء المهملة؟

= أنت لست شيئاً بالأساس، أنت أغنية تحتمل الكثير من الأوجه

_ لا تحملي الأغاني ما لا تطيقه

= الأغاني ليست دائماً أغاني كما تعتقد، دعنا نؤمن بالأغاني كما نريد

_ ولكنها سيئة، بل أكثر الأغاني سوءً هي الأغاني التي نحبها، إنها تعلق بالذاكرة عندما نتذوقها في موقفٍ محدد وتظل فيه،

وحتى إن مرت الأيام وعدلنا عن حزننا بعد مدة طويلة فعندما نسمعها مصادفةً فسنتذكر بها حزننا القديم ونعيد له وعيه

= أنت تعلم تماماً أنك لا تحوي شيئاً إذا لم تفعل بك تلك الأغاني شيئاً

_ أحمق، أليس كذلك؟

= وتُحب حماقتك لأنك رجل

_ لأول مرة تتهمينني بالحماقة

= ألم أقل لك أنك أحمق من قبل؟

_ لا أعتقد

= بل قلتها، ولكنك يومها كنت تريد أن تكون أحمقاً، أنظر إلى نفسك ملياً، أنتم كِذبة حمقاء أيها الرجال

_ من الحماقة بدأنا، وإليها نعود، ومنها نُخرج تارةً أخرى

= أحسنت. (بسخرية).

_ ولكني دائماً أتحدث إليكِ أنتِ وليس إلى كل النساء، أنتِ دائماً تتحدثين إليّ كرجل وليس لي أنا

= ماذا تقصد؟

_ أنتِ تنصبين نفسك الناشطة الكبرى لحقوق النساء أمام من يحبك، لماذا تحاولين ركلي عنك؟

= أعتقد أنك عنيت الركل هذه المرة وليس الترك

_ تماماً

= مَن يركل من؟

_ أنتِ تركليني عنك

= ولماذا أركلك؟

_ لستُ أعلم

= إذاً دعنا في أمك

_ أمي لو تعلم أني أهرب منها كل يوم وأجلس طوال ساعاتي أمام الكمبيوتر من أجل فتاة لقتلتها

= يا ساتر!

_ أتعتقدين أن الأمهات يمهلن الفتيات اللواتي يعصفن بصدور أبنائهن؟

= ليس هذا تحديداً، ولكن أمك تبدو عنيفة

_ وما أحدثته بصدري أليس عُنفاً مع سبق الإصرار والترصد؟

= أنت من ارتميت، أنا لم أجذبك إليّ

_ ......

= ......

كانون الأول ٢٠١١

ذاكرة لا إرادية (٢)

حنين يطمس معالم فوّهة الرياض

ليلة من الحياة في ضريحِ ميت

نقاش يُنبتُ جدل

الجدل يُثمر تحدي

التحدي يقطف ألف قُبلة

١

٢

٣

٣

٥

٥

٧

٩

وضاع العدد والمعدود.

شَعرِك

العدالة لا تقتصُ منك، ربما خجلُها الموروُث هو من علّمكِ وعَلّمها أن الحب ليسَ جديراً بالأهمية. مُتعِب، مُنهِك، غوغائي، مُتطرِف، مَجنون، يَأخُذْ ولا يُأخذ، يَنال ولا يُنال منه. وأن الأرصفة وصناديق البريد لم توضع في الطرقات للعشاق وإنما للزينة. الشعر والشعراء القَصص والبكاء، والنزوح الدائم والأطلال الدارسة وقبيلة كاملة من العذريين تنتهكينها عندما تُنكرينها بسذاجة. لم تعلمي ولو رجماً بالغيب أنك ترتكبين مشكلات فردية وجماعية وتردد وتحرر وحداثة وأزمة ثقة يُراجعها العربي مع تاريخه وأساطيره. تتكبدين عن التاريخ لعناته المستمرة وجلساته الطويلة عندما تُعقد للمباحثات وتدور رحى المناقشات؛ فيُحاورك المحاورون ويُحاربك المحافظون وتتحزب الأحزاب ضدك، ويتفق الناس بعدك ولن تجدي معك سوى "طه حسين" يُصفقُ في قبره ❖

❖ طه حسين هو أشهر -ربما يكون الأول- من شكك بمصداقية الشعر الجاهلي.

ستتحدث الصحافة بتحفظها والتلفزة بفوضويتها وستُصعّد الأمور للسلطات العليا بعد أن شغلت السلطات الدنيا فيجتمع الرؤساء ويلتقي الفُرقاء وتقام ثلاثة مؤتمرات عربية كلها في أوروبا. سيُطاردك المذيعون في كل مكان وسيتبعك الإعلام في كل زمان وسيستضيفك "تركي الدخيل" في "إضاءات" ليوضح الحقائق.

قبل أن تجلسي إلى طاولة "تركي الدخيل" أريدك أن تُدركي شيئاً غريباً يسكنني، أنتِ حقيقة سافرة ولستِ بحاجة إلى مقعدين وطاولة مستديرة وبرنامج ملوّن. ضحكتك المبحوحة والمليئة بالشهقات والمختومة بـ (أمممممم) دائماً، تجعلني أهرش رأسي بتلقائية قبل أن أرفع عليه علامة تعجب كبيرة مفادها "عن أي حسنٍ نتحدث؟". لخديك وهج، وفي عينيك غنج، والهدوء الذي يسكنك يطوي الأرض كمداً وغزلاً دون أن تهتمي له. مُبالغ بحسنك، مُبالغ بلطفك، ومُبالغ بعينيك عندما تكاد تختفي وأنتِ تبتسمين، ومُبالغ بطيشك عندما تتعمدي أن تُغيضين. مُبالغ برقة قدك، ومُبالغ بنعومة خدك، وأنتِ فتاة مُبالغ بكل ما فيها لا تُطالع أحداً والجميعُ يُطالعها ولا تهتم بكل شيء وكل شيء يهتم بها. باردة كشتاءات موسكو وحارّة كقناني الفودكا. ولأن ثقتك لا تجعلك تهتمين بما حولك، فأنتِ لا تعلمين أن الدنيا بقضها وقضيضها وصمتها وضجيجها تتجمهر

خلفك وتسير بعدك. ولا تعلمين أيضاً أن الأرض لا تدور بسبب الجاذبية بل لتُطارد مهبط قدميك. وفي عينيك ناشئة من الليل وحولهما نور من الصبح. وللزهر في رائحة شعرك أسوة حسنة. وآخر أحزاني هربت بمجيئك وأول أفراحي جاءت بقدومك. وأنك عبقرية العطر وكتومة السر ومسكوبة الظُلل ومسلوبة العلل وشامتك العذراء لا يُرضيها إلا ثلاث قبلات قبل الغسق وبعد الأرق وأثناء الشفق.

❖ ❖ ❖

تتذرعين بلهفة اللقاء الأخيرة بين شفتيك، وتُبعدين شعرك بأصابعك عن كتفيكِ فتتفتح على شفتيك زهرتين وتنتظرك الحياة ولا تنتظرينها. تعتقدين أن طابور المُعدمين والحائرين لا يُخلّفُ أحزاناً تصبُينها في قيعان صدري وتُكدسينها من حيث أدري ولا أدري فتَسكُتين، وتُغفِلِين، وترحلين.

آسف لم أكن معك في نفس التوقيت يومها، كنتُ قريباً من جرينتش وأنتِ بعيدة في سيدني، تحتفلين بالخريف وأنا أرتجف للشتاء، تُمازحين الريح وأنا أبكيكِ كل مساء. أنفضُ عني ركام الأحزان من أجل جديلة، وأتوق إلى أن أراك كفتاة قبيلة، تُغطي حبيبها بشعرها لينام فيه، وتنسج له ليلهُ وتَبسطه إليه. ترتاح وتُريح، وتستضيء بخدها المليح، تتعطر له وتنتظر أوبته، تعصب جبينها وترتقب طلعته، تقف على نواصي الكثبان الحزينة ناصبةً

كفها المُنتظر على ضميرها المستتر لتتابع آخر القوافل القادمة بالحب.

جئتُ إليك بحنين الأشياء المعقودة بنواصيك كالخير في كل خيل والمقبلة مع كل سيل والمصحوبة بأجواء غائمة وممطرة وتحكيها أحداث غير ممكنة لأن لك مع التاريخ والناس حكايات ولي مع شعرك بدايات لا تنتهي.

سقطتُ من فجوة الزمن الركيك وتماديتُ في طُرقِ الحب الكفيف حتى أدركتُ أننا لن نكون بالأخطاء الكثيرة إلا بشراً ولن تكوني بجبينك المضيء إلا قمراً، ولولا غفوتك المديدة عن الدنيا لكنتُ مصحوباً بضحكات الصبح كلما جئتُ على رُباك الحبيبة وأنت تتأملين جسدك الممزوج برائحة الجنة في المرايا حتى السَحَر، وتجمعينَ معك أغنيات القدر، وتُرسلين شعرك من غُرة منتصف الليل إلى وجنة انبلاج الصبح.

دائماً أخبرك أني أريدك بأطول جديلة ممكنة، وكثيراً ما يملئني التعفف والتأفف بعد أن أخبرك وأنا لا أريد أن أخبرك لأخبئ عنك كل ضعفي الصاخب كلما غمستِ أصابعك تحت وجنات الليل السحيق ونثرتِ خيوطه على وجنة النور العتيق وأخذتِ معك بصري المأخوذ وزفيراً زفيراً لا ينتهي، وشوقاً وتوقاً في ناظري، وتهزين أرجوحتك المُعلقة بين رئتيّ لتتهادى في الجوف قدوماً وتتناهى إليه رجوعاً فتطرأ أشياء عميقة وتندثر

أشياء سحيقة وأُحس برغبة كبيرة في قُبلة أتناولها منك وأدوخ فيها عنك.

أحاول معكِ بالطرق الملتوية وأتحدث عنك وعنه بموارية غبية وأخبركِ وأنتِ تعلمين أن كل ربات الخدور وحبيسات الصدور والأميرة النائمة والسندريلا لا يمكن تخيلهن بلا ضفائر طويلة تنحني مع انحناءات الجسد وتلامس القمم وتغوص في الوهد.

تتركين للزمن مكاناً خائفاً بداخلي قبل أن تحاولي إقناعي أن الشعر الطويل لا يجوز عليكِ، يُعيقك ويثيرك عندما يستثيرك ويحد من تحركاتك ويُخفي الكثير من صفاتك. وأنه من الأشياء القديمة التي أصبحت من موبقات جمال المرأة العصرية. وأنك لا تريدين أن أُحبكِ من أجل شَعر أكتبُ فيه ألفَ قصيدةٍ من شِعر، لأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون، ولأن الحب طاعة ورغبة وحاجة ورهبة ولعبة أرواح نتبادلها ونحن نبتسم.

وعندما تستهويك مضايقتي ومحاصرتي، تتعمدين حشر الأوقات المتكاثرة بالحيرة فيَّ، وتطلبين راجيةً بلهفة مكذوبة أن أوافقك على طرحه بعيداً عن عاتقك ورميه عن مزالق ظهرك.

كم مرة يجب أن أخبرك أن شعرك هو حديث المدينة ونشرات الجرائد وله قوائم طويلة يتابعها المقامرون في الحب كما يُتابع المضاربون أسعار النفط اليومية وأسواق البورصة العالمية.

زاد ملمتر فأرتفع الدرهم والدينار وأنخفض اليورو والدولار. سقطت منه شعرة فارتج الاقتصاد العالمي وحذر الخبراء من أزمة اقتصادية جديدة. حُسد أو رُصد، فجاع الجياع في العالم وأفلست الشركات في كل القارات وانتشر الفساد وباء العباد بغضب أرباب البلاد.

كثيف ومُنهمر وغزير ومنسدل، وحاجاتي فيك مرهونة بتهافتِ خصلاته، وأنفاسي استدركها من عبق صباحاته، وأنا مرهون فيه، ومنذور له، وشاردٌ عن الناس إليه، وتائبٌ إلا عنه، وروحي الوحيدة التي وهبني الله إياها منفوثة بعقدٍ مرصودة فإن سقطَ سقطتْ، وإن تُرِكَ تُرِكتْ، فما الذي تجنينه من جبروتك إلا وجعي؟

آيار ٢٠٠٨

رسالة

قبل أن تتقدمي قليلاً تذكري حُرمة الصناديق المُغلقة.

الآنسة نون. عين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   أما بعد

هذه هي الرسالة التي كنتُ أتمناها، كل ما كتبته لك سابقاً كان مجرد أشياء شعرية وشاعرية أتباهى بها أمامك لأجعل ثغرك المتمرد يبتسم فتتنهد الحقول وتسكت أسراب البلابل ويرفرف الضباب. الرسائل ليست رسائل ما دامت لا تُكتب باليد لتعوّج بها الواوات وتلتوي بها الهاءات وتستقيم لها التاءات. الرسائل هي ما تُمسكينه بعد أن أتركه، وما تفتحينه بعد أن أطويه، وهي تلك الأوراق الملونة والمعطرة والموقعة في آخر سطورها بقلبين مربوطين بشريطٍ أحمر. آآآآخ، لقد أفسدنا الإيميل

بعد أن أحييك من الرياض البعيدة عنك، وكي لا أسأل نفسي عن أخبارك التي أعرفها وتخبئينها عني، فأنا أعلم أنك عندما تصلين إلى هذه المطوية بين صفحات سقف الكفاية ستكونين قد تماديت في حرمة الصناديق المغلقة. ستفتحينها بشغف وتُقلبينها بنهم، ستُطالعين ما أرسلته لكِ من كتب

وسترمينها لتتعلقي بالدب الصغير والشمعتين وربما تتعطرين بـ "كيودو" قبل أن تقرئي ما كتبته هنا.

ليس هنا جديد..

آخر الأخبار التي وصلتنا من الأعلى هي أن المطر لا يتوقف وإن توقف، السحب تتكاثف في السماء والأرض تتلقف الماء بشهوة، تحول أيار الربيعي في هذه الصحراء إلى كانون البارد ولبس عباءة الشتاء وتغيرت معالم الأرض. وجهها المتشقق ابيّضَ ثم اسودّ ثم ترطبَ مع صبحٍ جديد فتحولنا إلى قِدرٍ تفوح منه رائحة الأرض التي اهتزت وربت. الناس الصامتون غابوا في معمعة الاتهامات والأحاديث عن الضلالات الكثيرة وهم يتقاذفونها في وجوه بعضهم البعض ويسخرون منها.

ليس هنا جديد..

السقوف التي يبنيها أبي اكتملت، أصبح من المنتظر أن أحمل كُتبي وأطيافك إلى حجرة جديدة لم تريها بعد. كل يوم يُناديني ذلك الشيخ الكبير كي أتابع معه العمالة الوافدة التي تخلط تراب بنائها بماء أحلامها نحو الشرق لتعود إلى هناك.

ألم تلاحظي أن كل شيء يحلم بالشرق؟

كنتُ حريصاً أن تكون حجرتي الجديدة صغيرة كي لا تتغير معايير الحب التي عرفتها في غرفتي القديمة. رميتها في آخر البنيان حتى أكون بعيداً بك عن الناس الذين سيقفون في

طرقاتي كلما أردتُ أن أضمك إلى صدري في أهوائي. تركتُ فيها نافذة وحيدة أُطل منها كلما ذهبت إلى هناك لأتأكد أنك لا تأتين من النوافذ فقط، وأنك تكبرين في داخلي مع الرئتين والحُجرات الأربع، وتسيرين عندما تتنزهين في مجاري الوتين.

ليس هنا جديد..

بحثتُ عن الكتب التي تريدينها فلم أجد الكثير منها في مكتبتي. سقف الكفاية وروايات أحلام موجودة، الأيام ومهزلة العقل البشري اختفت ولستُ أعلم كيف اختفت، هكذا بدون أي مقدمات رحلت إلى أحدهم أو أن الوقت ابتلعها نحو العدم. أذكر أني أهديت أحد الأصدقاء الملتزمين كتاب "علي الوردي" ولكنه أعاده إليّ ولم يقبل الهدية. أشار إلى أنه يُريد أن يطلع ويتثقف ويتعلم ولكن ليس من رجلٍ لم يكتفِ بأن يكون شيعياً بل تطرف وأصبح علمانياً. إذاً هو أعاده إليّ، فأين اختفى؟

أيام طه حسين في مكتبتي منذ أكثر من عشر سنوات. لم أقرأه إلا مرة واحدة عندما كنت أصغر من أن أحبك. لم أتذكره إلا بعد أن ذكرتِه لي. بحثتُ عنه في كل الرفوف وبين الكتب المصفوفة والمغطاة بالأتربة ولكني لم أجده. نقبتُ في الصناديق المغلقة كما كنتِ تُنقبين قبل دقائق وسألت كل من مرَّ بي واتهمت أخي لأنه يستعير الكتب ولا يُعيدها.

لم أجده، ولم أجد ما يسعفني لأجده، لا شيء، لا أحد، حتى أني عدتُ على الشك في العدم مرة أخرى! هل يبتلع العدم الكتب يا حبيبتي؟ هل يأخذها منا كي لا نقدمها في الصناديق المغلقة إلى من نحب؟ هل يحب القراءة كما نحبها؟

لستُ أعلم، ولكن الرجل اليماني الذي يعمل في نادي الكتاب كان يحدثني عن الكتب التي أسأله عنها وهو يبحث بين الرفوف. يجوس بيده برغبة وعندما لا يجد شيئاً هنا فهو يهرول بساقيه في العتمة الباهرة بين صفوف الرفوف ويسترسل في أحاديثه معي. كنتُ أقول له أني لا أهتم بأي كتب أخرى لنفس المؤلفين أو تتقاطع مع ما أريد في نفس الموضوعات أو العناوين، وأن كل ما أريده أن يُخرج لي كتبي التي ابتلعها العدم، وعندما عرف أني قرأت هذه الكتب سابقاً سألني بتردد:

لماذا تشتري الكتب التي قرأتها؟

كانت ابتسامتي كبيرة عندما قلت له: إنها هدية.

ليس هنا جديد..

مجرد حب يكبر بداخلي لأن الفتاة التي أحبتني أكبر من أن يُكتب لها أو يحكى عنها، تفرغتْ من كل شيء حتى تمتلئ بي وقررت أن تقرأ معي ما أقرأه وأن تتعطر بعطري الذي أرسلته، وأن تنام وفي أحضانها دمية صغيرة لأنها هدية مني.

ستُشعل الشمعتين الصغيرتين وستجلسُ في مجالسنا التي نفتعلها كل يوم كزمرة المتعبدين وهي تُردد الحروف الأربعة التي أطالبها بها دائماً ليطمئن قلبي كما اطمئن قلب موسى.

ليس هنا جديد..

سوى أن الحياة بدت أجمل عندما أتيتِ بها معك وأن الأشياء المهمة أصبحت مهملة والأشياء المهملة أصبحت مهمة، وراحت كل محاور النقاش تلتف على عينيك وتوقفت كل الطرقات بين يديك، وتعلمتُ لذة الرعشة وطعم البداية من المنتصف. وآمنتُ أن هناك سماءً مليئةً بالمطر فوقي، وهي تستحق أن ابتسم لها بامتنان كلما تذكرتك.

التوقيع:

خاء. دال

كما يُرسم في الرسائل دائماً؛

قلبان مربوطان بشريط أحمر.

شباط ٢٠١٢

فَزَع

قد يكون مفزعاً أن تكتشف أن داءك امرأة وأن دواءك امرأة، وأن في صدرك وجعاً مهيباً كتاريخ اليونان القديم؛ مؤلم ومفزع وناعم ونائم على سرائر مُترعة بالأحلام المزعجة. ولأنه يُبيح كل شيء عند الحب والحرب، فستعتقد أن هناك ثورة تُحاك في صدرك وتعديلاً ليلكيّاً في قدرك. بدايتك الأولى ستكون صرخة سافرة ضد القمع العاطفي الذي كنتَ فيه. سيصفعك غباءك عندما لا تحبها حتى لو كانت لا تحبك، ستعرف أنها حتى لو كانت ليست لك فأنت من قبيلة تقدس الغمام ويجب عليها أن تُراقبه وتتحدث عنه وتقتفي أثره.

لستُ أهددك بها يا قلبي المسكين ولا يمكن أن أعدك بشيءٍ لا نعرف كيف بدأ. قد نتفق على صوتها المُقتبس من أناشيد الفتنة النائمة، قد نجتهد لدراسة عبقها المتحيّز لرقتها الحالمة، ولكننا أبداً لن نكون منطقييّن عندما نقول أنها جميلة فقط كالأساطير أو لذيذة فقط كالشوكولا أو أنهم فقط عتقوها برحيق ريحان الجنة ثم أرسلوها إلينا.

هوس شديد قد تُحسُّ به وأنت تفكر فيها. أنا فقط أنظر إلى أحلامك وأتابعها كالمُتعثر الكبير ولكنه مثابر. ترى أن رغباتها

تلتف حولك لأخذها منك والابتعاد بها عنك. تفكر أنها بلا شك أجمل من أن تختفي بصعوبة وأرق من أن تظهر بسهولة. تُحدّثُ نفسك عنها كما يُحدثُ النساءُ النساءَ والرجالُ الرجالَ وترى في خيالك صِبيةً يهمسون بها لإخوتهم المُغرمين.

تغتاظ وتمتعض، تحقد وتُحدق في نفسك، تهدأ قليلاً وتعتبر أن هذا ليس شأنك وحدك وأن الثروات لا يمكن الانفراد بها. تتعزى بثقة المهزومين وتهمهم أن ليس ذلك جديداً على تاريخ الفتنة. تعيد الحسابات بدقة وتراجع الأساطير بنهم. تنظر لها وأنت تعتقد جازماً أن الذيل هو من أسقط عباس بن فرناس ومنعه من السفر إليها، وأن حرب المئة عام كانت بسبب قصيدة ملحميّة عن شَعرِها وأن القذافي لم يتظاهر ضد نفسه إلا عندما فكر فيها.

يحدث أن تستولي عليك لوثة مُحببة وأنت تفكر. تجرك الميتافيزيقيا نحو ما هو أبعد. تقول أن الله يضع العلامات والدلائل المنطقية لخلقه في هذا الكون، تتمنطقُ بأنه فعلها مع الأنبياء والصديّقين والشهداء حتى آمنوا به. وأنه فعلها معها عندما علّمها بشامة لتجدها بسرعة رغم أنها كانت أمامك.

ستتراجع بقوة عندما تقول ذلك. ستعيد صياغة الأحاديث المُغطاة برقائق السكر والمُزينة بشقائق النعمان. ستؤكد لنفسك التي تعرفك أنك لستَ نبيّاً أو صديقاً أو شهيداً، وأنك لست

تفعل سوى أن تنسحب لا إرادياً إلى عالم الضوء المكتوب بعنقود الكرز المُعلق على شفتيها. يُبهرك أن تطالعه، أن تُمعن نظرك في تقاطع الحروف رغم أنها تتقاطع على أفواه العالم كله ولكن ليس كمثلها، فليس كمثلها شيء. تعجبك لحظة التأمل في وجوهها الثلاثة حتى تتساءل عن حدود الرحمة وفداحة الرقة التي تنتظرك. يأخذك منك أن تعلم أن الفتنة تأتي من حيث لا تدري. ستنظر إليها وترى أنها منتظمة وسامية وخداها يبدوان كمنطادين مستعدين لأخذك في رحلة فلكية بلا توقف. ستكون هناك قادراً على رمي النجوم وستسمع صوت ابتلاع بحيرة الفراغ لها، ستمسك بذيول الشهب وتسافر معها، ستُعلق أرجوحتك على القمر عندما يكون هلالاً فتتهادى في الأفلاك وأنت تبتسم، ستكون هناك صاخباً ومرحاً وصبيانياً ومفتوناً بسعادة غير متوقعة.

لكنك أيضاً تؤرق نفسك ليالٍ طويلة وأنت تفكر. يوقدك سهرك وتتخبط على أعتاب الوسن ولكن لا وسن. يعجبك أن تضطجع وأنت تقرأ جبينها كمعوذتين وتُرتل عينيها كأواخر البقرة. تعتبرها رقية شرعية من النساء. يَحدُثُ أن يملأ سهرك عينيك الحالمتين حتى يغلبك النعاس فتحاول أن تستسلم له. تُلقي رأسك على وسادة ناضجة تتخيلها نهديها. تتغطى بجسدك وأنت تتقوقع معها. تجد أنها تُيقظ فيك حنينك

للبراءة والطفولة والأحلام التي لا تعود لأن العمر فاتها، الآن تعود. تضعُ معادلات جديدة للحياة وترتب التنهد المُتفَاقِمَ فيك وتُحسُ أن النوم يتسرب منكَ وإليكَ في ذات الوقت. ترتفعُ بكَ عن نهديها أو وسادتك. تلتصقُ بجسدها وأنتَ تُعيدُ تقييم المُعادلات في رأسك. تنظر إليك بصمت في خيالاتك فتخبرك سكينتها أنها فتاة تضج أنوثةً ولا يمكننا النوم عند حضورها. يجذبك ضجيج رقتها وأرقك. يحدث ذلك باستمرار معك. وعندما يحدث في ليالٍ قليلة أن تنام فأنت بالتأكيد ستحلم بالأخوين "رايت" يتحدثان بقلق ويُنبهان نفسيهما لئلا ينسيان الذيل.

تموز ٢٠١١

كائن لا تُحتمَل خِفته

الإهداء:

إلى المذكر السالم الذي هجر النحو ورحل مع قافلة الشعراء

إلى النساء الكثيرات اللواتي جمعهن الله في امرأة

وإلى " كونديرا" حتى وإن لم يكن حبيبتي

❖❖❖

(ماذا لو أننا عندما نموت ننتقل لحياةٍ أخرى على كوكبٍ آخر مثقلين بكل خبراتنا القديمة في كوكب الأرض. ماذا لو أن هناك حياة ثالثة ورابعة وخامسة وكواكب أيضاً لكل حياة على حسب الترتيب. ننتقل من الكوكب الأول للثاني بنفس الخبرات ولكن بأجساد جديدة متوافقة مع الكوكب الجديد.

ألن يكون كافياً لهذه الروح المسكينة أن ترتاح بعد الكوكب الخامس؟)

"ميلان كونديرا" بتلخيص في "كائن لا تُحتمل خفته"

❖❖❖

تقعّرَ صدري عندما أخبرني صديقي أني لا أكتب إلا لأُهذب الوجع. أرتبه وأزينه وأحشره بفظاظة في وجوه الشعراء أمثاله. وأني فُطرتُ وجُبلتُ على التوقف بجانب الأشياء التي لا تتوقف وتُسافر دائماً. هزني منظره الساخر كما يهتز جذع الوجع. لوّح لي بسبابته الغليظة ولم يتوكأ عليها، هشَّ بها ملامحي حتى تبلدت وتلبدت ورأيتُ شيئاً ينكسر. فقدتُ خِفتي فجأة وأُثقلتُ بالهبوط في منحنيات أفعوانية لا تُسقطني إلى الأرض فقط بل تحشرني مع أمواتها لأنتهك سباتهم. صرخوا بصوتٍ واحد: (أخرج منها يا ملعون)

❖ ❖ ❖

استيقظتْ "تيريزا" ذلك اليوم من النوم وهي تضحك. ابتسامتها الذابلة بخيانات الرجل النائم بجانبها تؤكد أنها سعيدة بما رأته. لقد رأت في النوم كلبتها "كارينين" تلدُ فطيرتين هلاليتين ونحلة. النحلة ترنحت وسقطت ثم ترنحت وسقطت ثم طارت بتكسُرٍ غائبةً في الأفق، أما الفطيرتين الهلاليتين فلزمتا مكانهما.

حنينها للسعادة اللعوب وحقيقة قلبها المثقوب جعلاها تبتسم. وعلى الرغم من كونها لم تجد تفسيراً لهذا الحلم الغريب جملةً وتفصيلاً، إلا أنها كانت تضحك وتحزن لهذه الولادة القادمة عبر بوابة النوم.

كانت "تيريزا" سعيدة وكنتُ سعيداً معها. نتقاطع في السعادة المحكية لنا عبر رجلٍ لا نعرفه ونلتقي في نفس الطرقات. كنتُ عائداً من "العدامة" بصحبة "تركي الحمد" فرأيتها تجلس على كرسي خشبي في حديقة منزلها التي أحرقها الجيش الأحمر. وعندما جاوزنا منزلها ووصلنا إلى ناصية الشارع، التفتُ أنظر إليها مرةً أخرى فكانت على كرسيها لا تتحرك. شربتُ الشاي في "خان الخليلي" مع "نجيب محفوظ" ومررتُ على منزل "جوستن غاردير" في "عالم صوفي" وكنت قد استغرقتُ أكثر من ثلاث ساعات _ بتوقيت الورق _ قبل أن أعودَ من نفس الطريق لأجدها على نفس الكرسي سعيدة وساهمة وتبتسم للفضاء المُنتشر أمامها.

لم أتحدث إليها ولم تنظر إليّ، متهيبة ومتكيفة مع جمود العالقين بصدرها. تَضمُّ "أنا كارنينا" بخوف ويُخبرني منظرها عما اختبأ فيَّ عني وتضعه أمامي بلا موارية كما يفعل الأصدقاء الشعراء. المنسي بنرجسيتي الكبيرة لا يمكن أن يغيب عنها مهما تبخرتُ بخفته وتصعّدتُ إلى السماء. تثقلني بأرتال الحقيقة

وتطرحني على الأرض المتحركة وتجعلني جديراً بحقيقتي المضطربة والمُنبعثة كالأنبياء من أعمدة الروايات المتراكمة على أرض الغرفة وتحت الأسرة وعلى الرفوف المُغبرة. في الحديث عن الحديث والمُقيم من القديم وفي أبواب الحكايات التي تُستفتحُ دائماً بـ "يُحكى أن" حتى وإن لم يقلها الرواة.

منذ أن قرأتُ الكائن الذي لا تُحتمل خفته وأنا مشدوه للوقائع التي تحدث بطريقة مرتبة لنقعَ في الحب:

(١). يكونان في الجامعة مثلاً، الصباح الغائم والماطر يجمعهما في المكتبة الجافة عن المساحات المُبتلة، يسيران بين الرفوف بمظهر طلابي مثابر، ولا يحدث إلا كما يحدث دائماً عندما يصطدمان فجأةً فتنتثر الكتب. ربما لا ينظران وإنما ينحنيان ويبقى كل شيء رتيباً حتى تلتقي الأعين فتتحرك الأرض الثابتة ويخفق قلب.

(٢). يكون سائق تكسي وهي في جولة تسوق مع صديقاتها ويوم نسائي مُكثف لمضغ اللبان والحديث عن الأسرار الناعمة. تركبُ مع الجمع المُحتشد وتلقي بجسدها في الزاوية. تصمتُ مثلما يصمتن في البداية، وتصمتُ أيضاً عندما يتحدثن في النهاية. تحاوره إحداهن لم تكن هي. تُحاول هذه المنمقة مراوغته ومماطلته وجسَّ أوضاعه. أما هي فهي تتأمل وتتألم وتنفخ بخارها على الزجاج وتشكله بإصبعها كيف تشاء. تبدو صامتة

في زاوية السيارة لكنها بالتأكيد مُهتمة بحرارة لما يحدث من حولها، فهي التي أوقفته بعد أن رأته البارحة يُدخن سيجارة.

(٣). تكون بائعة تذاكر في محطة القطار في آخر ساعات العمل، تعقفُ معطفها الطويل على جسدها النحيل وتنتظر الانتظار عبر النافذة المفتوحة على وجوه أناسٍ لا تعرفهم. هو يتنقل منذ ثلاث سنوات من مدينته إلى مدينة حبيبته السابقة. لقد كان نائماً ولم يلتقط الحب المُرتب بالصدف إلا عندما عاد ذلك اليوم مثقوباً بحزنه، ومنِ مَن؟، مِن الفتاة المُنهَكة.

لو أن "تيريزا" لم تعشق "توماس" لما بقيت معه ولما شمتْ رائحة فرج امرأة في شعره عندما ضمته إليها. أيضاً لم تكن ستُعادل الكفة عندما ضمها المهندس إلى صدره وهي عارية وتترقب اختلاجات جسدها بين يدي رجلٍ جديد. وغرابة الانتقام الذي لم تستطيع معه صبراً كان كالكائن الذي يّخفُ فينا كما كتبه كاتبه في القصص الثلاث. يهدهده ويمارسه ويصفُّ الحقيقة بطريقة غير حقيقية لكنها تُعجبنا. يؤثث الكلمات بالاستفهامات العجائبية ليرينا من زاوية جديدة لم نكن ننظر منها. ومما ليس منه بُد _ كما كان يُغني "توماس" في الرواية؛ أن نعرف أن الحقيقة لن تتغير بعد أن نقرأه لأنه يكتب بهذه الطريقة ولكنها ربما تكون أوضح وأشهى وأمتع. يلعب بالصدف وأقدار الكائنات الورقية ويحشرُ قرائنه فيها بالمطر وبخار النوافذ والمعاطف

الطويلة كي يجعلك تقول معه بتضامنٍ مُبطن: أن الشتاء موسم الحب، وأن الحب الصيفي يخنقه نزق أيلول.

ربما كانت الخفة التي يعنيها " كونديرا" هي تلك الكتلة التي تبخرت على صدى "الصُدف الست" كما رتبها في روايته. ربما كان _ بطريقةٍ ما_ يحاول إقناعك بالقناعة وأنها كنزٌ لا يفنى كما نقول دائماً بلا قناعة. وأن لكَ صدفاً ست كصدف "توماس" الست التي جمعته بـ"تيريزا"، وأن هذه الصدف هي من ستقرر مصيرك ومصير كل شيء من حولك، وأنها تفرض نفسها على كل القصص اليومية والمُتخَيلة وتلعب دوراً مهماً في تكوين أفكارنا وأعمارنا ومصائرنا. وأن هذه الصدف هي أيضاً من جعلت الفتاة المنزوية قرب الباب تتنهد بعمق، والأرض الثابتة في مكتبة الجامعة تتحرك، والحزن يخلق حباً جديداً في المحطات.

هربتُ إلى الأوراق وأنا أغني أن ليس لي من بد. أدركني القنوط وأنا لا أريد أن أكون هكذا، رجلاً يكتبُ حزيناً ويقرأ سعيداً لأننا لسنا في مواسم الحب. يُحمِّلُ جسده المسكين حياوات الآخرين وابتساماتهم الحزينة من على الكراسي الخشبية والمدن الافتراضية وهو لا يزالُ في كوكبه الأول. يهذي مع الأماكن البعيدة وتضطرب عاصفة الشوق للقراءة لأننا سعداء قبل الكتابة محزنون عندها. يقفُ برغبة خائفة على حد الهاوية الأفعوانية وجسده المُثقل بالحكايات يتكتل بداخله ويجعل "تيريزا"

والأصدقاء مُحقون ولو كانوا شعراء. يكتب عن الكلاب كما يكتب عن الكتابة لأنك إن تحمل عليها تلهث، وإن تتركها تلهث وليس له عاصم منها إلا الكتب.

صيف ٢٠١٠

ملاحظة: الكروسون قد يكون فطيرة هلالية.

ذاكرة لا إرادية (٣)

منزلكم الصيفي

غرفة الاستقبال

فتاة البرمودا تعشق البيج

الشَعر لا تمشطه إلاّ الريح

خاتم بفصوص أربعة

فيها المفقود، فيها المولود

جسد خمري

تفاح وجنة إيراني

رمان صدر طائفي

عنب شفاه يماني

يا بستان حبيبتي

علمتنا فائدة الصيف

فتاة الريح

واحدٌ وثلاثون عاماً وأنا أُطاردكَ يا ظلي، كُنتُ كالبشر المخلوع من المتعة والمشغول بتِعداد العمر والمطاردة. نفسي تُنازعني الآن عليك، لستُ أعلمُ متى ستُطاردني كما أراد الله أن أكونَ وتكون.

قبل أن ألقاكْ كانتْ فتاة الريح تقف على الشواهق المعتمة وتختلي بالصمت مصرفةً الريح بيديها الناحلتين. كنتُ قريباً منها ولكنها كانت تحجب الريح عني فتبتعد بها جنوباً إذا ما كُنتُ شمالاً وشمالاً إذا ما كُنتُ جنوباً فتتركني في كل مرة لاختناقات التنفس. وكلما أحست برعدةِ الموت تعتريني، وكلما رأت ذبول العُمر يكتسيني، سقتني من فيض ريحها غيضاً أحيا به قليلاً.

كنا اثنين وثالثنا عزرائيل الذي يقرفص بجسده وقبضته مليئة بالرغبة، يُطالعني كلما ازداد الاختناق بعينين تتحينان الفُرَص. كان يريدُ التخلص من قرفصته المعقودة على تلك القمم ولكنها كانتْ تريد إلهاءه عن آخرين لا تريد موتهم، لقد أحكمت قبضتها الناعمة على يديّ الموت الصارمة.

❖ ❖ ❖

أمي البارحة رسمت ابتسامتها التاسعة عندما أخبرتني بمخلوقٍ جديد يتكور في بطن زوجة أخي الأصغر. كانت قد رسمت ابتسامتها الثالثة قبل التاسعة بعام عندما كان ذلك المخلوق يتدفق بظهر أخي. أمي لم تكن تعلم أني أملك من الأجنة ثمانية وعشرون عربياً يطاردونني كلما انحنيتُ بذاكرتي على شاشة جهازي المربعة مع كل ريحٍ تتركها لي فتاة الريح. لقد كانت أمي تعتقد أني سأخجل من رجولتي المرمية وراء الظهور من أجل الفراغ الذي لا تُدرك امتلاءه بفتاة الريح بعد أن هربت خلف البحار السبعة قبل أن تُكمل معي أعوامنا الستة مؤكدةً لي أن السعادة لا تأتي كاملة. لم تكن تُدرك أمي أن تلك الفتاة قبيلة من الوجع تضربُ أطناب خيامها على محاور القلب الأربعة كي تقتات بصدري وترحل بعمري إلى من لا يفهمها ولا يُدرِكُ أنها فقيدة الملائكة ولقيطة البشر. لم تكن تدرك أيضاً أنها كالعقيدة التي تملؤك إيماناً وتُحرّمُ طاعة غيرها من النساء وتُكفّر حب سواها من الأشياء. كانت دائماً تقف على المنابر مع كل معصية حب كي تعظني بثقتها المغموسة بالغنج حينما تهمس بالفتيا معلنةً أنها:

(لا تُحب القمر؛ ولكنه يعجبها

لا تُحب العمر؛ ولكنها تحياه

لا تحب أغنية " كِل الأصايد"؛ ولكنها تُطرِبها

لا تحب عصير التفاح؛ ولكنها لا تشرب سواه)

كانت تؤكد لي دائماً أن الحُب لا يُصرف إلاّ للحبيب فقط، وكل شيء آخر يمكن لنا أن نُعجب به أو نستلذ به ولكن بدون حب، فمن أين لك يا أمي أن تعرفي عقيدة فتاة الريح؟!

لم تكن أمي تعلم أيضاً أني الوحيد على هذه الأرض الذي كان يؤمن بالزواج راحةً وحباً وسكناً. الوحيد الذي كان يُقسم أن يوصدَ أبواب بيته في وجه الملل والخوف والخيانة والكره، الأكثر إيماناً بغلظة الميثاق وتناسل الأعراق، الوحيد الذي كان يعتبر المائة قُبلة التي ادعاها شاعر بدوي فحل قبل أربعة عشر قرناً لا تساوي شيئاً على وجنة فتاة الريح. الوحيد الذي كان يحاول تعويد نفسه أن ينام على جنبه ممدداً كي يكون مستعداً حينما يضمها إلى الراحة بقرب الحبيب. بل وأكثر من ذلك؛ أني الوحيد الذي يريد الموت كهلاً وهو يُقبلُ شفتيّها المُجعدين ويضم إلى صدره نهديها المترهلين.

لقد كنتُ كذلك يوماً ما يا أمي، أما الآن فلم يعد لتلك الأحلام الغضة أن تسكن حياتي، بل ولم يعد لرغبات الزواج المخزية حاجةً في باقي سنواتي، فأنا لا أؤمن بالأنثى ما دامت لا تقفُ على الشواهق وتُصَرّف الريح كي تُعلّمُني ما هو الاختناق. إنها فتاةُ الريح يا أُمي التي تركتني فُتاتاً للريح.

❖❖❖

يا لكِ من إحدى وثلاثين رعدة تجتاحني كلما انحنيتُ على ذاكرتي أتحسسها بصدري ولا أعي منها سوى ما بدأته في رابعة رياضٍ صيفية كانت فيها تُصرّف الريح لي وعني وهي تطالعني بشقها الأيمن وأنا أهوي إليها بجسدي وعمري رغبةً ورهبانيةً ابتدعها لي القَدَر. أُطالع الخاتمَ بفصوصه الأربعة وأشعرُ بانتمائي إليه، أمسح عن جبينها سيل الليالِ المُعتمة وأرتجف كلما جُلتُ بأصابعي عليه. كنتُ الفتى الذي فقد توازن الجاذبية وبدأ يرحل إلى القمر. كنتُ ذلك الذي هرب منه البقاء فقرر بلا علمٍ منه أن يموت، كنتُ المحبوس بين جدران الفراغ وبين أصابعي شباب وعُمر وياقوت. كنتُ المرمي على جزر الحلم كي أحلم أكثر وأصبح أكبر قبل أن أستفيق بعد سنواتٍ خمس في غيَابةِ الجُب بعد أن كنتُ في غيَابةِ الحُب.

❖ ❖ ❖

ما أصعبَ أن تستعيدَ توازن الجاذبية فتسقط إلى الأرض بعد أن يتخلى عنك القمر. ما أصعب أن تحيا بعد أن يموت حبك. بل ما أصعب أن تتذكر ضحكاتك وأنت تبكي قدرك. تُراقبُ العُمرَ وتُلقي جسدك على أريكة كما يفعل الكثيرون. تستنشق حشيشة النسيان دمعةً دمعة، وتَكتبُ حياتكَ بممحاةٍ تعودُ بها على سطورِ العمرِ كلمةً كلمة، وكأنما تستطيع إعادة الكتابة عليها قبل أن تستنفذ شهيقك المكتوم على تلك الشواهق. وإذا ما جاءت بها

إليكَ الأيام وسألتكَ كما سُئلَ من قبلك فستبتسم بفتور كما ابتسَموا وستقول بهدوء كما قالوا:

لا شيء تغير، ما زلنا على نفس القمم، أنتِ تُصرفين الريحِ، وأنا أختنق، وعزرائيل يتربص بي.

تشرين الثاني ٢٠٠٨

كتابات لا تعرفينها

(٣)

جدة.. أم الرخاء والشدة

كان يوماً مليئاً بالأشياء المطمورة بالذاكرة، جاذبية حريرية وشوارع مزدحمة بالضجيج دون أن تسمع شيئاً. تنزلق منك الوقائع الخاسرة أمام رغبتك في الحب فترى الله يكتبُ في أحداث ذلك اليوم آياته التي لا تنتهي. ومنذ أن تركنا تلك الكعبة المعمورة منذ آلاف السنين، تعلقنا بأطراف الرجاء الأخير أن نعود إليها مراتٍ عديدة وأزمنةً مديدة.

تحلل أبي وتحللتُ أنا، تطهرتُ من ذنبي وتطهر أبي، ورحنا نحث الخطى حتى تبوأنا أرض المدينة المنكوبة بأحزانها منذ ستة أشهر كي نتقدم بالوقت.

أطرق برأسه للتاريخ الذي ينضج الآن كما نضج في الأزمنة المنقطعة، وأرهف سمعه للأصوات المزدحمة والمخنوقة واللاهثة، تعدى الأجيال القديمة التي أعرفها وراح لأجيالٍ أبعد بكثير. رأيته شيخاً كبيراً يعرف قصصاً كثيرة فاتها التاريخ فلم يكتبها،

أحداثاً قديمة كانت مكتوبةً على أبواب هذه المدينة المفتوحة على الساحل.

أخبرني عن (اللوري) والطرقات الملتوية التي تنحدر به من على جبال الطائف وتنزلق به على شعاب مكة وتُسقطه هنا، عن جدة القديمة والأجناس الكثيرة المختلطة بها، عن الأصدقاء والحب والغربة التي كانوا يعانونها. يتعكز عصاه وينحني بصوته للعمر المنفق بسرعة وبلا رغبة ولكنه يُنفق. الشفاه التي كانت تتحرك فيه أمامي واللسان الواثق بالقدر كشفت بداخلي مدناً تأكل العشب❖ والناس والحياة وتطوي الظلمة بالضوء وتُجيد حبك النهايات، والناس هنا علمتهم الأجواء العائمة ألا يشترون الحلم من نافذة البحر، فجدة لا تنام حتى تفوّتَ الأحلام.

(٤)

قرر أن يزور صديقين قديمين أقعدهما المرض، كلٌ منهما يضطجع على سري أبيض في زاويتين بعيدتين، أول الأمر كان

❖ "مدن تأكل العشب" عنوان رواية لعبده خال تحدثت عن جدة القديمة.

الموضوع مُملاً، لكن المشاهدة تختلف كلياً عن المشاركة، لقد كنتُ هناك معهم يا قضيتي، أستمتع بأحاديث قديمة وصديقٍ لصديق فقد حتى قدرة التركيز على النسيان وأصبح يهذي. أما الآخر، فبقي منه ما تبقى فقط، جمع نفسه وأحضر غسوله وراح ينتظر كما أنتظر، الأشباه التي وجدتها فيّ وفيه قريبة جداً من الظروف التي اخترتها لحياتي؛ عجوزاً في الثلاثين يحني أملهُ فيكِ ويبذلُ عمره إليكِ. كان العجوز يصر بطريقة أخجلت أبناءه أن يضع نظارته على أرنبة أنفه ليبدو مثقفاً كما كان ولا يزال. لقد كان الموقف غريباً مريباً تملكتني فيه الدهشة عندما رأيت أبي يمزج عواطفه بهذا النحو المُربك، لقد كان حزيناً وسعيداً معاً.

أنا أيضاً حزين وسعيد معكِ، كل عواطفي المحذوفة من قائمة مشاعري استرجعتها لك بعد أن حصرتُ الإرث والتقيتُ الورثة. جمعتُ الأخماس وقسمتُ الأسداس وأعطيتُ كلٍ ذي حقٍ حقه، لم أرَ أحداً فيّ يستحق أن يُحجب عنك يا سليلة الماء وضغينة النساء. قسمتُ لك أطرافي وأعماقي، وحكمّتُكِ فيَّ وفي أحداقي، وبكيتُ لك كثيراً وأنا أضحك لأثبت أني ابن أبي ووريث الأحاسيس المخلوطة بالنقائض.

(٥)

صافية هي رائحة الحنين عندما تمددتُ وأنا أنظر إلى ما يُشبهكِ، المغيب والنورسان اللذان يلعبان بصوت البحر والضحكات القادمة من الخلف والهبوب المتواصل ونشوة البرد كلها كانت تشبهكِ. لم يتبق إلا أن تتصعد السحب وتتنزل بشكلٍ عمودي لترقص كما يحدث تماماً وأنا معكِ. تقفين معي وترحلين معي، تلوّحينَ بكفي للبحر قبل أن نستقل سيارتنا أنا وأبي وثالثنا المخبول "حامد زيد" كما أسماه بضحكة زافرة يخرجها من صدره الثقيل.

قبلتُ خدوداً فاترة لخمسة من الأجساد الغضة اصطفت تودعني على باب منزلهم وكنتِ معي، كبّرتُ ثلاثاً وأنا أهوي إلى شمال جدة وكنتِ معي، تركتُ الجنوب خلفي وأنتِ معي، وأكملتُ دعائي حتى تناهت بي الطرقات إلى المدينة وأنتِ معي. مدينة اليهود والرسول والأنصار والتاريخ المُبرم على عقود الدين المكتوبة بأفئدة المؤمنين منذ أربعة عشر قرناً ويزيد. سمعتُ أصوات الإيمان تُنهكُ حناجرها بالدعاء على جنبات أُحد وثور. رأيتُ المعركة وأبصرتُ لمع القنا، شاهدتُ قتلاهم وشهداءنا، والرماة وهم ينزلون عن الجبل، وجيش خالد يكر بعد أن يفر، ومثار النقع والعويل

والخيبات والصرعى ومعركة أولى يخسرها المسلمون ليتعلموا منها درساً يعلمه الله.

الطرق مزدحمة بالأضواء الصفراء الباهتة، الأشجار مصفوفة في الشوارع الضيقة والفارهة، وجوه بيضاء ولحى بيضاء وعمائم بيضاء وأفئدة بيضاء ترتل القرآن وتُصلي بإلحاح والجميع يمشي بخشوع ونحن معهم. فأنت تعرف الطريق إلى الحرم عندما تسير مع الفئة الغالبة.

(٦)

كان وقوراً ويخنق نفسه بربطة عنق، يتحدث بسرعة ولكنه لا يُخطئ، يلبس جاكيت رصاصي ويحفُ شاربه بإتقان، يجيد عمله ويقص الفواتير من الطابعة بحرفية عالية، ويحاول أن يوفق بين الداخلين والخارجين رغم أنه يكاد يكون وحيداً في استقبال الفندق.

_ هآه، إن شاء الله عجبكم السويت؟

_ جميل

_ وتراه آخر سويت عندنا

_ سنأخذه

_ معاك شنط؟

_ في السيارة

_ كم حتشرفونا بإقامتكم؟

_ ثلاثة أيام

_ من وين يا أخي الكريم؟

_ من الرياض

_ أنت والوالد فقط؟

_ اللّه ثالثنا

وتمتمتُ في نفسي: وهي رابعتنا

كأنه سمعني عندما ابتسم، أدرك أن هناك قلوباً تُريد أن أعود إليها، تقطعُ انتظارها بشهقاتها وتُجدل الأمل بالدعاء وتنام. تنتظر رغم أنها تعلم أن العمر لا ينتظر أحداً، وأن الحب لا يعرف وطناً، وأن ابتسامتها كفيلة بسحق الحدود ورمي الجمرات ومزج الأرواح، وأنها تستحق أن أعود إليها لأخلصها من زفرات مختلفة تعلقت بصدرها منذ أن رحلت.

سكتَ كثيراً قبل أن يرحب بي مرةً أخرى في فندقهم ويوّقعني ورقة ويوقعني فيك، انصرفتُ عنه فانصرفتُ إليك. لم أستدر عنه حتى تعثرتُ بك وملأتِ صدري وأصبحتِ معي من جديد. سمعتكِ، حدثتكِ، أخبرتني وأخبرتك، تهامسنا، تناقشنا، وسرنا معاً إلى غرفتي ونحن نتحدثُ عن خوارق الشعور. فتحتُ

لك الباب وأدخلتك، نظرتُ إليك ومازحتك، وقبلتكِ كثيراً وضحكنا كثيراً وخبأتكِ في الخزانة عندما جاء أبي يوقظني لصلاة الفجر.

ألا تذكرين؟

كنتِ تُحبين المرآة يومها، جلستِ أمامها طويلاً وأنتِ تُراقبين تفاصيل نضوج خديكِ مع أضواء الغرفة الناعسة. ترفلين بشعرك تحت هجوع الليل وكلما أراد أن يستيقظ له الصبح خدعته بضفيرة.. يا أميرة.

هل كنتُ معكِ ساعتها؟

(٧)

رحلة الألفي كيلومتر لم تكن لتتوقف هنا، كانت ستواصل من أرض المغادرة إلى أرض المغادرة، الرياض كالأرض؛ منها خُلقنا، وإليها نَعود، ومنها نُخرج تارةً أخرى.

الطريق كانت خالية من المدينة إلى القصيم، أفواج المقبلين وخصوصاً من دول الخليج كانت تتابع في وجهينا المُطرقين على الأسفلت. سمعتُ أحدهم يتحدث بلهجة كويتية ويحمل أطفاله في السوبر ماركت، رأيتُ عمائم عمانية أو أنها إماراتية في المحطة.

لوحات السيارات كانت تتلون وتختلف علينا حتى وصلنا إلى القصيم وانحرفنا نحو الرياض من خارج المدينة، ولم نكد نستقل الطريق حتى تزاحمت الشوارع مع المغيب. هجمت السيارات على الطريق، هدرت وانطلقت مخترقةً الهواء تتزحلق بصخب نحو العاصمة.

كنا قد أنهينا أحاديثنا كلها وأنهكنا الوصول، خمسة أيام وخمسة مدن تناولناها بسرعة ورغبة في الطاعات بعيداً عن المعاصي، درنا بها على أنفسنا كما تدور سحابة حبك معي..........

آيار ٢٠١١

على أستار الكعبة

((سنةٌ تركها لنا المجنون وبها نقتدي))

يا رب

يا رب

يا مالِكَ المُلك

يا مُقدرَ الرِزق

يا خالقَ الفتنةِ من تُراب

يا خالقَ الجَنةِ والعذاب

لكَ أسلمت

وبِكَ آمنت

وبقضائكَ رضيت

وبِرضاكَ بقيت

❖ ❖ ❖

اللهم إني عَبدُك

ابنُ عَبدِك

ناصيتي بيدك

ماضٍ فيَّ حُكمك

عدلٌ فيَّ قضائك

رَضيتُ بجنةِ الدُنيا التي وهبتني

ولستُ أعلمُ عنها لمَ منعتني

وبقضائك رضيت

وبقضائك رضيت

وبقضائك رضيت

❖ ❖ ❖

يا رب

يا رب

إنك أودعتَ في عَينيها بسمتي

وفي شفتيها جنتي

وعلى خديها راحتي

فألطُف بعبدِك بعدَ أن رحلت

وأمّن قُلوباً من مَصيرها وجلت

أمست على الجمع

وأصبحت على الدمع

❖ ❖ ❖

يا رب

يا رب

إني جائعٌ لعينيها فزودني

إني عارٍ من كفيّها فألبسني

إني ظامئ لشفتيها فاسقني

إني ضريرٌ لخديها فأرشدني

إني جاهلٌ لدارها فعلمني

❖ ❖ ❖

يا رب

يا رب

لقد ذرعت الأرض بعدها

وشقيت بصدق وعدها

ولست أعلم لما أنا فيه من مخرجٍ إلا أن أضمها

وأستعبر ببقايا دمعي على حسنها

وأمرغ خديّ بترابٍ وطئته قدمها

وأستنشق عطراً استوطن عنقها

فإن كنت تعلم أني بعد كل هذا مُلاقيها

فأشدد على قلب عبدك

واشرح صدره لوعدك

وانصر عشقه

فلا ناصر له إلا أنت

ولا عالم لما هو فيه سواك

❖ ❖ ❖

اللهم إنهم أخذوها مني

اللهم إنهم أبعدوها عني

حتى أمست بوادٍ غير ذي زرعٍ من الحب

حتى أصبحت بجرحٍ غير ذي طب

بك أستجير على بابك المُحرم

وبأستار بيتك العتيق المعظم

فليس لي وجهة إلا أنت

وليس لي غاية إلا أنت

اللهم فثبت قلبي على ديدن الحب

وثبت قلبها على هوى الصب

فبها ينعم

ومن بعدها يألم

ولست أعلم لآلامي طباً سوى رحمتك

ولست أُدرك لدمعها كفاً إلا برأفتك

فنجنا يا منجي القلوب

وثبتنا على الحب وأن لا نتوب

❖ ❖ ❖

يا رب

يا رب

بقدرتك يا رب أردتَ أن ألقاها

وبحكمتك يا رب أردتَ أن أشقاها

وقلوبنا ليست إلا بين إصبعين من أصابعك

تقلبها كيف تشاء

فتكتبنا من السعادة سعداء

أو من الشقاء أشقياء

اللهم فإني أسألك أن تريني الحب رحمةً وترزقني إتباعه

وتريني النسيانَ ألماً وترزقني اجتنابه

اللهم آمين

اللهم آمين

اللهم آمين

تشرين الأول ٢٠٠٧

أسرار مُحرمة

_ من اكتشف القُبلة؟

_ من وضع شفتيه على شفتي أنثاه أول مرة؟

_ كيف تناهى إلى عقله المجنون أن هناك لذةً ملائكية عند التقاء الأفواه تجعلنا طاهرين كالطل وحالمين كضحكات طفل؟

_ من اكتشف القبلة؟

❖ ❖ ❖

_ ما الذي حدث؟

أحدثَ ضجيجاً عندما سأل، فاجأني بك رغم وجودك الساكن بلا غيبة. ورطني فيك وسكتُ عنه بلا منهجية. تفرستُ وجهه المتجمهر وسقطتُ فيه دون أن أجيبه. لغطُ الحديث يرتب نفسه ولا يترتب. الأصوات تتداخل نحوك ولا يمكن أن تقولك. تنطلق أصداء وصولك قبل أن تنطق نداءات حضورك. دقةُ شفتيك تُمثِلُ الحدَّ الفاصل بين البوحِ بك والصمتِ المُطبق بروحانية رحيلك. احتراقي بغيابك كان متوهجاً كحمرة خديك.

فلسفاتي فيك ضاعت عنك دون التفوه بك. أحسستُ أن الحديث معه لن يكون ممكناً بهذه السهولة. لن أستطيع إخباره بتلقائية عنك يا فتاة التلقائية المُركبة. لن أتمكن حتى من تمويه الموضوعات فأقول له أننا وكل ما فينا محزنون بسبب الرتابة. بسبب كوكب السعادة حينما سَئم دوران المجرة. بسببِ بحيرةِ السكون التي تحركتْ عندما استبقتِ باب صدري وقددتِ منه قلبي بلا جناية. لن يكون ممكناً أن أحدثه عن ضحكتك المفقودة ورقتك المعقودة وصورتك العاجية التي أبكتني البارحة. عن طعم القُبلة التي تركتك لحياتي قِبلة. عن الشغف الذي أحسه تجاهك كلما تدثرتِ بصدري من هموم يومك. عنك، وعن الحب، وعن وساوس الوسائد التي تنتابنا على الأسِرة والحروف التي لا تنتهي رغم كل ما نكتبه. عن الحياة المُتقلبة التي لا يمكن التنبؤ بها. عن المشكلات الصغيرة التي لا نريد حلها لأننا نخشى حلها. عما يحدث لنا في الحياة، عما نخافه فيها فيحدث لنا لأننا نخافه، وعن إيماننا أننا لا نعيش إلا نسخاً مكررة من هزائم المُتبضعين في أسواق الحياة الرديئة عندما نشتري السلع التي لا نُريدها. عن عتاد الأمنيات التي نشحن بها أنفسنا حتى تتكاثر الأحلام فتتحطم على رؤوسنا. عن العمر وكأنما هو ظل شجرة في ساعةٍ من نهار، وعن النساء اللواتي يقتلعن الشجر لئلا نستظل به.

عن السطحية وسذاجتنا المُكثفة عندما نُهمشها. لن يصدقني عندما أقول له أنها خير من العمق الذي نتكلفه وأنتِ غائرةٌ ببهائك في أعماقي. كيف أشرح له أن العمق يهوي بنا إلى قاع الهوس ولا نستطيع الانعتاق منه. أن أخبره أيضاً بصوتٍ مُتحيزٍ للثقة أن السعادة سيئة ومُتطرفة ويجب إقصاؤها والبصق عليها قبل أن تحتل صدورنا وتتمكن منها، وأنها تؤمن بالقوانين وتتساوى بالمقادير وترتدُ بالأحزان. وأن أقول له بشكل مباشر وبلا سعادة، أن سعادتكَ بالحب ستوازي حزنك بالفقد، فلا تسعد كثيراً لئلا تتجرع حزناً كبيراً.

كيف أقول له كل ذلك وأنتِ تتحركين بداخلي وتتكاثرين حديثاً لن أقوله يا عقيدة الأسرار المُحرَمة؟، يا أسرار نزار التي تمزقه ولا يقولها، ❖ يا حزن بيروت وطعم التوت وبندقية درويش. ❖❖ بل كيفَ أستطيع أن أسأله عنك وعما إذا كنتِ قد تفشيتِ عليَّ حتى تفتقتْ براعم حبك في صدري ونبتت منه على وجهي فاستطاع رؤيتك. عن كشفه المخيف لأحزاني بعدك وما الذي يمكن أن أفعله بعد أن نقضتِ وعدك.

❖ عن بيت نزار:

حسبي وحسبك أن تظلي دائماً   سراً يُمزقني وليس يُقال

❖❖ عن قصيدة محمود درويش "ريتا" والتي كان موضوعها الأساسي البندقية التي فرقت بين الشاعر وحبيبته.

بل كيف أسأله عما تفعليه في آخر مدن غيابك. كيف أستطيع الارتماء عليه والاستنجاد به دون أن أقولك.

أجعله يخبرني عنك وما يقرأه على وجهي منك. يخبرني كيف وجدك فيَّ وأنا لم أخبر بك نفسي حتى لا تقاسمني حبك. أجعله يُحدثني عنك عندما أصبحت أحاديثي معك غير ممكنة. ينقل لي ما يراه فيّ وما تشكلينه عليّ. يلفظك كتعاويذ السحر فتشرقي بمهجتي كالفجر ولا يشبهك إلا المطر. يوطد علاقتي بالضوء ويحدثني عن اسمك وما تفعله الزنابق عندما تسمعه، وعن رائحة شعرك وطوفان العطر الذي يتبعه. عن قوانين الفيزياء المُحتضرة عند جاذبية فوديكِ، عن أوهام الكيمياء عندما تتفاعل مع ضوء خديكِ. أن يُحطم نظريات العلماء ويخبرني عن امرأةٍ واحدة نقضت كل سُنَنِ الفلاسفة بإلهام صمتها الغائب.

أن يشرح لي حقيقة الغياب وما الذي يجعلنا نفتعله. يخبرني عن الضمائر المهزومة بانفصالك والموجوعة لاتصالك. بل أردتُه أن يسألك ما دام يراك عن حصيلة غيابك. عن تفاصيل يومك التي لا تهتمين لها وأتقد توقاً لسماعها. عن صباحك المعتاد وأنتِ تدفعين جسدك الرخامي عن فراشك. عن خطواتك المثقلة بالعطر وثغرك الموشى بالتبر وهندامك السريع أمام المرآة. عن النعاس المُبكر يكتحل عينيكِ ومنديلك الأبيض يذوب

بوجنتيكِ. عن حزن مقابض الأبواب وأنت تودعينها كل صباح نحو المدرسة. عن صخب الشقيات حيث تمارسين تعاليم التعليم لفتياتها. عن طوابير الطفولة التي تمرينها كل صباح فلا تتذكريني رغم أني أتذكرك في كل الوجوه حتى وجه أمي. عن صمتك الفاتن وأنتِ تعبرين الأروقة وحديثك المُتعَب بين الطاولات. عن اضطرابك المُترع بالانفعالات أمام صغيرة لم تقم بواجبها المدرسي. عن حجرة المعلمات ووجهك الملائكي عندما يمتعض من النميمة. عن شكاية الأمهات وبهجة المديرة وإحساسك المُتفهم تجاهها. عن خيوط شعرك المُنهمكة صديقتك في ترتيبها. عن حقيبتك وما تحمليه فيها. عن كل ما فات منكِ وأردتِ أن تُبعديه عني. عن ابتسامتك، عن شامتك، عن صراخ الأقلام شوقاً لأصابعك، وعن الدفاتر وما تكتبيه عليها وما تقرئيه فيها. دفاتر الواجبات، دفاتر التحضير، ودفاتر أحزاني وأفراحي التي أكتبها لك وأرميها في صندوق رسائلك. وعن طريق العودة في ذات السيارة وعلى ذات الطريق عندما تقرر الشمس الوقوف على رؤوس الأعمدة تنتظرك هي أيضاً. بل أردتُ أن يسألك ما دام يراك على وجهي:

من هز كتفيك وأيقظك مني؟

من جعلك تتقدين بصدري كسُنَنٍ ضوئية؟

من جمع أحزان المدينة البغيضة وأنزلها رئتيّ؟

بل قولي لي بربك ولن أسألك بعدها ؛
من المجنون الذي اكتشف القُبلة؟

حزيران ٢٠١٢

ذاكرة لاإرادية (٤)

الطابق الثاني

حجرة اليسار

ظُلمة تصفعها شمعة

رائحة الأنثى في الغرفة

قطعة شوكولا تذوب مرتين

كأسا عصير؛ أحدهما مشغول والآخر فارغ

مزهرية

جسدان ميّتان إلاّ من الحب

نغمٌ يذرعُنا وجعاً حتى الصباح؛

(هيدي إيامي معك

ألبي اللي بيوجعك

أنا لولا الهوى... أنا مين؟)

انتهى

الفهرس

١. مدد ٧
٢. ذاكرة لا إرادية (١) ٩
٣. الحب أجمل طريقة للموت ١١
٤. أوضاع متقلبة ١٨
٥. دردشات ٢٢
٦. ذاكرة لا إرادية (٢) ٣٨
٧. شَعرِك ٤٠
٨. رسالة ٤٧
٩. فَزَع ٥٣
١٠. كائن لا تحتمل خفته ٥٨
١١. ذاكرة لا إرادية (٣) ٦٦
١٢. فتاة الريح ٦٨
١٣. كتابات لا تعرفينها ٧٤
١٤. على أستار الكعبة ٨٣
١٥. أسرار محرمة ٨٩
١٦. ذاكرة لا إرادية (٤) ٩٦

خاتمة توضيحية:

هذه النصوص كتبت بين عامي (٢٠٠٧ _٢٠١٤) على فترات متفاوتة، والكثير منها _ما لم يكن جميعها_ سبق نشره في منتديات ومواقع متفرقة على الانترنت. إذاً ما الذي يجعلني أعيد جمعها ونشرها؟

إنه هوس المراجعة، فمما أعانيه فيما أكتبه؛ هوسي الشديد بالمراجعة والتعديل والتحقيق والتدقيق والحذف والإضافة. هناك هاجس يتملكني كما يتملك الكثيرين بأن يكتب أفضل ما لديه وأن يقدم ما يستحقه القارئ لقاء اختياره هذا الكتاب دوناً عن غيره ومكابدته عناء قراءته، ولم أجد أفضل من طريقة النشر للتخلص من هذا الهوس كي لا أعود إليها وأمضي قدماً نحو حياة عادية أو مشروع كتابي جديد. ولأن هذه النصوص وجدت الكثير من الحفاوة حينها، وكثيراً ما وصلتني رسائل معجبة بها، فقررت جمعها وطرحها بشكل كتاب إلكتروني يُمكن الوصول إليه بطريقة سهلة متمنياً أن يجد لدى القراء قبولاً حسناً. والله ولي التوفيق.

خالد سعيد الداموك

٢٠١٦م

- صدر للكاتب ورقياً "حصة بنت الجيران" قصص قصيرة عن المركز الثقافي العربي بالتعاون مع النادي الأدبي بالرياض.
- هذا الكتاب نسخة إلكترونية فقط وليس هناك أي نسخة ورقية منه.
- لا تترد بإبداء رأيك عن محتوى الكتاب على البريد الإلكتروني kh.damuk@gmail.com

صدر للمؤلف: "حصة بنت الجيران" قصص قصيرة عن النادي الأدبي بالرياض.